إيمان حجو
تؤكد العنصرية الصهيونية

الدكتور عبدالستار قاسم

16/صفر/1422

يغضب الكيان الصهيوني ويغضب معه يهود في العالم ودول غربية مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا في كل مرة يوجه عربي تهمتي الإجرام والنازية لإسرائيل وقادتها. هناك من يظن أن إسرائيل دولة متحضرة وديمقراطية وهي لا تتجاوز المعايير الإنسانية إلا مضطرة وبحذر شديد. فهل في مصرع إيمان حجو حجة دعت إسرائيل لصب نيرانها في بطن الطفلة؟ أم أن المعارك لا ترحم ولا بد أن يسقط فيها بعض المارة الأبرياء؟

لا ترتقي كل العبارات الدبلوماسية ولا عبارات الشجب والاستنكار والأسف إلى ما يجب أن يوصف به الكيان الصهيوني من إجرام يمتاز بالتلذذ على دماء الأبرياء ودموع الأطفال وأنات الأمهات. لا يكف هذا الكيان عن الاستمرار في جرائمه البشعة ولا يتوقف عنه سيل التبريرات الآتية من الغرب التي تحاول أن تجعل من العلقم حلوا ومن القنابل والصواريخ أدوات لخدمة الاستقرار والسير في طريق السلام. الإجرام الصهيوني تراث تنتعش على أوتاره المتهتكة ذكريات دول غربية لم يمخر قارب قيامها إلا على جداول من دماء الأبرياء. وكأن للإجرام زفرات تدنس أجواء الإنسان فتتعارف وتلتقي على صيحات آلامه.

يقاتل الصهاينة دفاعا عن الاحتلال، عن تشريد الشعوب وسلب الأرض وقهر الناس. إنهم يدافعون عن عدوان ابتدأوه منذ أكثر من مائة عام وما يزالون يصرون على مواصلته والإمعان فيه. لهذا صرعوا إيمان حجو. إنها بنظرهم ليست طفلة وإنما كبيرة المستقبل التي ستحمل اللواء دفاعا عن حقوق شعبها وكرامة أمتها. إنها ابنة الأربع شهور العشرين سنة بعد عشرين سنة. عندها ربما تكون إيمان أمّا وربما تنجب أطفالا وبالتأكيد ستقول لهم أن فلسطين عربية وإسلامية وفي أعناقهم مهمة تحريرها، وربما ستحمل إيمان الإيمان إلى فعل وحركة وتنقض هي ذاتها على الأعداء تمزق أحشاءهم. فعاجلوها قبل أن تعاجلهم ومزقوا أحشاءها قبل أن تقطع أعناقهم. هكذا تصنع الصهيونية تبريراتها وعلى هذا تبني قناعات أتباعها. ألم يقل أحدهم يوما أنه يكره أن يرى عربية حبلى لأن فدائيا يرقد في بطنها؟

أمريكا والدول الغربية التي تسير في ركبها تدافع عن الاحتلال ويتعاملون مع عملية الصراع الدائر في منطقتنا على أنها صراع بين قوى النور والانفتاح والعلم والديمقراطية وبين قوى الجهل والظلامية والاستبداد والتخلف التي نمثلها نحن. يتعاملون مع إسرائيل على أنها الدولة التي تبحث عن السلام ومع العرب على أنهم يقدسون الحرب وسفك الدماء. إنهم ببساطة يدافعون عن الاحتلال ويعتبرونه دفاعا عن النفس، ويبررون للإسرائيليين أعمالهم. لم يسمع أحد في العالم الولايات المتحدة تصف الاحتلال بالإرهاب ولا اليهود بالإرهابيين على الرغم مما اقترفوه ويستمرون في اقترافه ضد الشعوب. لكن الولايات المتحدة ومن والاها لا ينفكون ينددون بما يسمونه بالإرهاب العربي والإسلامي والفلسطيني، وهم لا يكتفون بالتنديد بعمليات تفجيرية في أوساط قد تكون مدنية على أنها إرهابية بل يعتبرون المساس بجنود الاحتلال عملا إرهابيا، ويؤكدون باستمرار أن السلام في المنطقة لا يتحقق إلا بإسرائيل القوية. إنه منطق يخترق كل المعايير الأخلاق والتاريخية وكأن الاحتلال عار ويجب أن يقاوم إلا إذا كان صهيونيا أو خدمة للمصالح الغربية. عدد من الدول العربية والإسلامية يتم وضعها على لائحة الإرهاب بينما إسرائيل تبقى بريئة.

على أية حال، لا يوجد في الوطن العربي من لا يستوعب معاداة أمريكا وإسرائيل للإنسان، لكن من المهم أن نتحرر من نير الاستعباد الفكري الذي يتم تسليطه على رقابنا وأن نسمي الأشــياء بمســمياتها وألا نخجل من قول الحق والجهر به. وإذا كان اليهود قد وسعوا نفوذهم من خلال الجمعيات والحركات السياســية والمال والإعلام فإن ذلك لا يعني أن نطأطئ رؤوسنا ونقبل بمقاييسهم ومعاييرهم وأوصافهم. تحــدث الأســد بالأمس حقا عن أخلاقيات اليهود فاشرأبت الأعناق الغربية محتجة ومنددة واستشاط القادة غضبا، أما مكــوث شعب مشرد في مخيمات كئيبة وبائسة على مدى عشرات السنين فلا يأتي بذات الغضب ولا يستحق إلا بعض عبارات تعبر عن حزن مزيف.

يردون في الغرب على ما نصف الصهيونية به أنه لا يجوز مقارنة الصهيونية بالنازية خاصـــة أن النازية مثلت الاستبداد وكانت جرائمها جماعية ومرعبة. هذا كلام مردود لأن هتلر لم يسلب الحكم ولم يتربع على عرش ألمانيا بالقوة ورغما عن الناس، بل وصل إلى الحكم بأسـلوب ديمقراطــي ومنحــه البوندســتاغ الصلاحيات الضرورية لاتخاذ ما يرى من سياسات مناسبة. لا يختلف قادة إسرائيل في أساليب ارتقائهم نحــو الحكم عن تلك الأساليب التي اعتمد عليها هتلر وهي الانغلاق العنصري وبث مشاعر التفوق وصنع أجــواء المعاداة والخوف من المستقبل. لا يتوقف قادة إسرائيل عن التذكير بتاريخ الاضطهاد الذي تعرض له اليهــود ولا عن التمسك بنقاء دولة اليهود وضرورة بقائها دولة يهودية في مواجهة القوميـــة العربيـــة أو المشـــاعر الوطنية الفلسطينية. أما من ناحية المجازر فهناك شك في المدى الذي تتحدث عنه الصهيونية والدوائر الغربية معزز بأبحاث علمية قام بها غربيون على رأسهم المؤلف الفرنسي جارودي. وما يدلل على هذا الشــك هــو السياسة الرسمية التي تتبعها دول غربية في منع التعبير حول مصداقية أنباء المحارق ومنع الأبحاث العلميــة التي يمكن أن تضع علامات استفهام على الدعاية الصهيونية. فمن يرى أنه ينطق بالحق لا يخشى من تتبــع الآخرين لما يقتنع به في محاولة للتأكد. وإذا سلمنا بما يقال عما فعله هتلر باليهود فإن المقارنة تبقى منطقية. قام الصهاينة بمجازر مرعبة بحق الشعب الفلسطيني قبل عام 1948 أذكر منها دير ياسين والدوايمة ومســجد دهمش. ولم يكتفوا بالمجازر بل عملوا على طرد الشعب الفلسطيني من وطنه وما زالوا يمنعون النـــاس مــن العودة إلى بيوتهم. ولم يتورعوا عن القيام بمجازر أخرى مثل قبية وكفر قاسم، وتمددوا بمجازرهم إلى الدول العربية فقصفوا المدارس والمصانع مثل مدرسة بحر البقر ومصنع أبو زعبل، وأسقطوا الطــائرات المدنيــة واختطفوها، وقتلوا الناس في الملاجئ مثلما فعلوا في قانا.

لم يفعل هتلر ما فعله بتقديس أو مباركة إلهية، أما الصهاينة فيظنون أنهم يعملــون حســب وصــايا "ربهم" الذي يستشيط غضبا لعصيان أوامره. يقول لهم كتابهم المقدس: **"كل مكان تدوسه بطون أقــدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم. لا يقــف إنسان في وجهكم. الرب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كمـــا كلمكم."** (سفر التثنية، الإصحاح الحادي عشر) وأكمل الرب تعاليمه بالقول: **"حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيهـــا يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصــرها. وإذا دفعهـــا الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكـــل ما في المدينة كل غنمها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكــذا**

تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق بها نسمة ما بل تحرمها تحريما (أي تقتلها) الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم." (سفر التثنية، الإصحاح العشرون) والنصوص بهذا الشأن كثيرة.

يجادل بعضهم بأن الفلسطينيين يقتلون أبرياء أيضا ويشنون هجمات تفجيرية تقتل أطفالا ونساء وشيوخا. على الرغم من أن أخلاقنا لا تسمح أبدا بتبرير قتل طفل إلا أن إسرائيل تصر دائما على زج أبنائها في الأتون. لم يجبر الفلسطينيون اليهود على الهجرة إلى فلسطين ولم يقدموا لهم بطاقات دعوة ولم يطلبوا من الدول الغربية حل مشاكلها مع اليهود على حسابهم. اعتدت الصهيونية على العرب وما تزال ممعنة في عدوانها وعليها أن تتحمل النتائج التي لا مفر ستشمل كل فئات السكان. فإذا أرادت إسرائيل أمنا فإنها لن تحققه على حساب الشعب العربي، ولن يكفل لها العدوان والجبروت ما تتمناه. وإذا كان من بين اليهود أطفال وصبية يدفعون ثمنا للصراع الدائر فذلك بسبب غطرسة الكبار وصلفهم وليس بسبب إصرار العرب على انتزاع حقوقهم. إنه من المطلوب من العرب وحسب كل الشرائع السماوية والوضعية ألا يستكينوا وألا يتنازلوا عن حق لهم.

هذا فضلا عن أن الفلسطينيين لا يملكون الوسائل القتالية المتطورة التي تؤهلهم لخوض حرب متكافئة مع العدو. أمريكا تمنع عن العرب السلاح وتلاحق إسرائيل كل تطوير عسكري يحرزونه. ولهذا لا مفر من الاعتماد على قتال الكر والفر الذي يستخدم وسائل قتالية غير متطورة وقد تكون بدائية أحيانا. وفي هذا يلجأ المقاتلون إلى محاولة تحقيق توازن الرعب. فإذا كانت إسرائيل تملك الوسائل التي تطال بها الفلسطينيين بدقة وعن بعد وتستطيع أن تنشر بها الخوف والرعب فإن الفلسطينيين يملكون القدرة على جعل الشارع اليهودي ومواقف الحافلات والمؤسسات التجارية مراكز رعب وهلع. أما إذا رأت إسرائيل أن الأساليب الفلسطينية غير حضارية فإنه بإمكانها أن تعطيهم الأسلحة ذات التدمير الحضاري. وإذا حصل هذا فإنني متأكد أن الفلسطينيين لن يوجهوا نيرانهم عشوائيا وسيركزون فقط على رؤوس الإرهاب الذين يصرون على أن يدفع المضلَّلون أثمانا لأعمال ليسوا مسؤولين عنها.

على أية حال، تمتاز الصهيونية بخلق إرهابي تدميري عدواني خاص بها ولا حاجة لنعتها بالنازية أو الفاشية. لا تتخلف الصهيونية عن التنظيمات أو الدول العنصرية بشيء، بل تتفوق في أدائها الإجرامي وانغلاقها على ما عرفه التاريخ من كراهية الشعوب والتعايش السلمي. وهي تواصل تطوير قدراتها العسكرية لتؤكد سطوتها وهيمنتها واستسلام الآخرين لإرادتها. وإذا أراد العرب أن يأخذ الآخرون بمقولاتهم فإن عليهم أن يفرضوا احترامهم، ولا أظن أن الوداعة تأتي في هذا العالم باحترام. عرفت إسرائيل كيف تفرض احترامها وليس عيبا أن يكون لنا من العدو درسا.